الأمير عبد القادر والتسامح الإسلامي*

د. أبو عمران الشيخ[1]

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

إنّ تاريخ الإسلام حافل بمظاهر التسامح والتفاهم والحوار بين الثقافات والحضارات. وقد أَلّفَ الكثير من الباحثين والدارسين الكتب والمقالات في هذا الموضوع. وقدم فريق منهم الآيات الكريمة والأحاديث النبوية وعلّقوا عليها بالقدر الكافي وردّوا على الّذين اتهموا الإسلام خطأ بأنه دين العنف والتعصب. ويمكن أن نضيف إلى هذه الدراسات مواقف شخصيات إسلامية بارزة تحلت بهذه الصفات الحميدة.

ولا شَكَّ أن الأساتذة الكرام سيتناولون هذا الجانب. وأريد أن أتوقف عند شخصية الأمير عبد القادر (1808-1883) الذي اشتهر بالتسامح والحوار مع معاصريه من الديانات الأخرى. إنه معروف عند

*. كلمة ألقيت في المؤتمر السادس عشر الذي نظمه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة 2004/04/28، في موضوع : **"التسامح في الحضارة الإسلامية"**.

1. رئيس المجلس الإسلامي الأعلى – الجزائر.

الناس بجهاده المرير ونال إعجاب الأصدقاء والخصوم بثقافته الواسعة وشجاعته وإنسانيته وتسامحه.

تشبع بثقافة إسلامية في أسرته المتدينة ثم أخذ عن علماء العصر واطلع على أمهات الكتب ولخص ثمرة تفكيره في كتبه وخاصة في "**ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**"[1] و"**كتاب المواقف**"[2] وذاع صيته في الآفاق ولاسيما بعدما استقر بدمشق إلى أن وافته المنية.

رأى الأمير أولا أن لا خلاف في الدين بين الأنبياء من آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد عليه السلام : "***يدعون الخلق إلى توحيد الإله وتعظيمه...وحفظ النفس والعقل والمال***"[3]. واعتقد أيضا أن الديانات السماوية متكاملة إذ قال المسيح : "***ما جئت لأطارد التوراة بل جئت لأُكـمِّلَها***" ؛ وقال محمد عليه الصلاة والسلام : "***ما جئت لأبطل الإنجيل والتوراة وإنما جئت لأُكمِّلهُمَا، ففي التوراة أحكام السياسة الظاهرة العامة وفي الإنجيل أحكام السياسة الباطنة الخاصة وأنا جئت بالسياستين جميعا***"[4]. وأشار إلى أن الحوار ممكن بين الإسلام والمسيحية. ولاشك أنه تذكر الآية الكريمة : ﴿***وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّانَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ منهم قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُم لَا يَسْتَكْبِرُونَ***﴾[5]. وقال : "***ولو أصغى إليَّ المسلمون والنصارى لرفعتُ الخلاف بينهم ولصارُوا إِخْوَانًا ظَاهِرًا وبَاطِنًا***[6]..." وتعرض أيضا إلى آراء الملحدين في

1. تحقيق د. ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1966.
2. ط. دمشق 1966، وط. الجزائر 1996، 3 ج.
3. انظر **ذكرى العاقل**، ص.101.
4. نفس المصدر، ص. 106.
5. سورة المائدة، الآية 82.
6. انظر **ذكرى العاقل**، ص. 107.

كتابه "**المِقْرَاض الحاد**"[1] وناقش أدلَّتَهُمْ وردَّ عليهم معتمدا على الكتب السماوية والعقل السليم. وقد طبق الأمير هذه الآراء عمليا في مواقفه من بداية إمارته إلى نهاية حياته وخاصة في تعامله مع الأسرى وعلاقته بمحيطه وهو في السجن بفرنسا وإنقاذه المسيحيين بدمشق أثناء اضطرابات 1860.

1. معاملة الأمير للأسرى

طلب أُسْقُف الجزائر "**دوبوش**" من الأمير تحرير أحد الأسرى قائلا : "*إنـــي لا أملك الذهب ولا الفضة من أجل الفدية وإنما أدعو لك في صلواتي المخلصة وتعترف لك زوجة الأسير بالجميل. وقد بارك الله فيمن يرحم الناس وغفر لهم*"[2]. وأجابه الأمير برسالة مفادها أنه يتعين على الأسقف أن يسعى في تبادل جميع الأسرى الموجودين لديه ولدى الفرنسيين، فالتقى بعد ذلك ممثل الأسقف بممثل الأمير وتم التبادل بين الجانبين. وذات يوم صاح أحد الأسرى بأنه لن يتخلى عن دينه أبدا ! فأمنّه الأمير وأكّد له أن لا خوف على حياته وشكره على وفائه لدينه وعلى شجاعته. وأضاف أنه يحترم الشجاعة في الدّين أكثر مما يحترمها في الحرب[3].

وفي ظروف أخرى لم يستطع الأمير ضمان القوت لـــ 94 أسيرا فرنسيا في معسكره، فقرر تحريرهم دون أي مقابل. وعندما وصل هؤلاء الأسرى إلى معسكرهم اندهش زملاؤهم من هذه المعاملة الإنسانية النادرة بين المتحاربين. وتعوّد الأمير على هذا السلوك الحميد إلى درجة أن الضباط الساميين الفرنسيين اضطروا إلى إخفاءه عن الجنود خشية أن

---

1. انظر **المقراض الحاد**، نشره محمد بن عبد الله الخالدي المغربي، مكتبة الحياة، دمشق، بدون تاريخ.
2. راجع شارل هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، الترجمة الفرنسية، الجزائر، 1971، ص.221-222.
3. راجع تشرشل، نفس المرجع، ص. 224.

تضعف معنوياتهم في القتال[1]. وبصفة عامة قد أمر الأمير جنوده بالمحافظة على أي أسير فرنسي أو أجنبي مقابل مكافأتهم بـــ 8 دولارات على الرجل الأسير و10 دولارات على المرأة الأسيرة[2].

وذات يوم اتصل أسيران فرنسيان بالأمير راغبين في اعتناق الإسلام[3]. لم يشجعهما الأمير على ذلك معتقدا أنها قد تكون محاولة للتخلص من حالة الأسر[4]. فطمأنهما على سلامة حياتهما إن بقيا على دينهما[5] لأن الأمير كان يؤمن بما جاء في القرآن الكريم : ﴿لَا إِكْـــرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[6]، و : ﴿وَقُلِ الحقُّ منْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَآءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[7]. وذلك هو أساس التسامح في دين الإسلام.

وهكذا امتاز الأمير بهذا السلوك الإنساني والتسامح الإسلامي مع الأسرى في حين أن النظام الدولي في ذلك العهد لم يتوصل بعد إلى أخلاقيات راسخة تضمن للمتحاربين أبسط الحقوق، و لم تصدر "اتفاقيات جنيف" المشهورة إلاّ في سنة 1949 كما هو معلوم. ولا غرابة في ذلك لأن الأمير استمد حسن المعاملة في هذا المجال من الدين الإسلامي الحنيف.

2. علاقة الأمير بمحيطه وهو أسير بفرنسا

عندما اعتقلت فرنسا الأمير بعد نهاية جهاده تعرّف على المحيط المسيحي هناك وزاره عدد من رجال الكنيسة ونسائها فصار يستعين بالطبيب لمعالجة

1. المرجع السابق، ص.225.
2. المرجع السابق، ص.229.
3. نفس المرجع، ص.224.
4. نفس المرجع والصفحة.
5. نفس المرجع والصفحة.
6. سورة البقرة، الآية 256.
7. سورة الكهف، الآية 29.

أفراد أسرته ورفقائه. وزاره خاصة الأسقف "**دوبوش**" المذكور سالفا والذي كان يقطن مدينة "**بوردو**". وتوطدت المودة بينهما. ولازالت المدن التي مرّ بها وهو بالسجن تذكر الأمير إلى يومنا هذا. وتجل فيها بعض الجمعيات المحلية أخلاقه وصبره. وألّف بعض الباحثين من الفرنسيين مقالات وكتبا وعرّفوا بالأمير إلى أن أطلق سراحه الإمبراطور نابليون الثالث سنة 1852 وعاد إلى مدينة باريس وتعرّف فيها الأمير على أدباء ومسؤولين سياسيين. واكتشف هذا المجتمع وعاداته ومؤسساته الثقافية. ثم انتقل الأمير إلى تركيا وإلى دمشق وتجددت زياراته إلى مدينة باريس في عدّة مناسبات. تواصلت المراسلات بينه وبين بعض الشخصيات التي أعجبت به وبسماحة أخلاقه، وأصبح محل تقدير واحترام من قبل الذين تعرّفوا عليه في هذه الظروف. والجدير بالذكر أن بعض الأسرى الذين حررهم الأمير ترقّوا في درجات عليا في الجيش الفرنسي وزاروه واعترفوا له بالجميل بسبب حسن معاملته لهم، وفيهم من ألّفوا مذكرات تشهد له بما قام به نحوهم. وطلبت منه جمعية ثقافية من باريس تسمى **الجمعية الآسيوية** أن يحرر لها كتابا يبدي فيه آراءه ولبى الدعوة وألّف "**ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**" وترجم الكتاب إلى اللغة الفرنسية ثم أعيد طبعه وترجمته.

3. أحداث دمشق

عندما انتقل الأمير إلى دمشق تفرغ للعبادة والمطالعة والتأليف والتدريس، وأحاط به عدد من العلماء وتأثروا به إلى أن وقعت حوادث دمشق في صيف 1860. قد دبّر بعض السكان من **الدروز** مؤامرة بعدما فرضت الدول الأوروبية على الدولة العثمانية منح بعض الامتيازات للمسيحيين في الشام.

وتنبه الأمير إلى المؤامرة إلاّ أن المسؤولين المحليين لم يقوموا بالإجراءات الضرورية وتهدئة العلاقات بين الطائفتين. بدأت الاضطرابات بدمشق وتحوّلت إلى مجزرة فسارع الأمير على رأس فرسانه وأنقذ حياة الآلاف من المسيحيين كما هو معروف، وبعد ذلك وجهت له الدول الأوروبية رسائل شكر وتقدير على شجاعته وإنسانيته ومنحته أوسمة شرفية نذكر من هذه الدول بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا والدولة العثمانية.

وتلقى الأمير من الإمام **شاميل** الذي قاد ثورة الداغستان ضد روسيا رسالة شكره فيها على إنقاذه للمسيحيين بعد حوادث دمشق واحتضانه لهم في منزله. جاء في هذه الرسالة : *"إلى من اشتهر بين الخواص والعوام وامتاز بالمحاسن الكثيرة عن جملة من الأنام الذي أطفأ نار الفتنة... واستأصل شجرة العدوان...المحب المخلص السيد عبد القادر المنصف... فقد قارع سمعي ما تمجه الأسماع...(وهذا) ما لا ينبغي وقوعه من أهل الإسلام..."* مشيرا إلى الحديث النبوي الشريف : *"من ظلم معاهدا أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب النفس فأنا حجيجه يوم القيامة...سمعت أنك خافضت جناح الرحمة والشفقة لهم وضربت على يد من تعدى حدود الله تعالى...لذلك رضيت عنك والله تعالى يرضيك...لأنك أحييت ما قال الرسول العظيم الذي أرسله الله رحمة للعالمين..."*[1].

فأجابه الأمير برسالة جاء فيها : *"إلى الأخ في الله تعالى والمحب...الإمام شميل...وسلام الله عليكم ورحمته وبعد فإنه وصلني الأعز كتابكم وسرني*

---

1. راجع **تحفة الزائر** للأمير محمد الجزائري، ط. الإسكندرية، 1903، ج. 2، ص. 140.

الألد خطابكم...هو كما في كريم علمكم مقتضى أوامر الشريعة السنية والمروؤة الإنسانية فإن شريعتنا متممّة لمكارم الأخلاق فهي مشتملة على جميع المحامد...والبغي في كل الملل مذموم"[1].

وكذلك تلقى الأمير رسالة من السيد "**بافي**" أسقف الجزائر الذي أشاد بشجاعة الأمير وإنسانيته وأجابه الأمير كما فعل مع شاميل[2] أنّ هذا السلوك فرضه الإسلام على أتباعه ويستجيب أيضا إلى حقوق الإنسانية. هذه إشارة إلى حقوق الإنسان التي أقرّتها الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. ولا غرابة في سلوك الأمير لأنه أخذه من ديننا الحنيف ورعاية حقوق الإنسانية.

وفي الختام يبدو لنا أنّ الأمير عبد القادر سار في الاتجاه الذي تبلور في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وغيرهم من العظماء في الإسلام مثل عمر بن عبد العزيز والإمام الغزالي وصلاح الدين الأيوبي وغيرهم كثير إلى يومنا هذا. فعلينا أن نعرّف بهؤلاء العظماء ونرد على الحملات المغرضة التي تأتينا من وسائل الإعلام في الغرب ومن بعض المسؤولين السياسيين فيه وذلك في شكل كتب ومقالات وأحاديث في التلفزة والإذاعة وأفلام وأقراص مضغوطة والإنترنيت. نسأل الله عزّ وجلّ أن يوفقنا جميعا في إعلاء كلمة الحق- والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

---

1. نفس المصدر، ج. 2، ص.115.
2. انظر :

Dr. Bouamrane Chikh, L'Emir Abd-el-Kader, résistant et humaniste, édit. Hammouda, Alger, 2001, p.104-106

المراجع والمصادر

1. الأمير عبد القادر، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، دار اليقظة العربية، بيروت، 1966.
2. الأمير عبد القادر، **كتاب المواقف**، دمشق، 1966، الجزائر 1996.
3. الأمير عبد القادر، **المقراض الحاد**، مكتبة الحياة، دمشق.
4. الأمير عبد القادر، **مذكرات**، دار الأمة، الجزائر، 2001.
5. الأمير عبد القادر، **ديوان**، دار الأمة، الجزائر، 2001.
6. د. أبو عمران الشيخ، **الأمير عبد القادر - جهاده ومواقفه الإنسانية**، تحت الطبع– الجزائر 2004.
7. د. أبو عمران الشيخ، **قضايا في الثقافة والتاريخ**، دار ثالة، الجزائر، 2003.
8. د. بوعزيز يحي، **الأمير عبد القادر، رائد الكفاح الجزائري**، ط. ابن خلدون، تلمسان، 2002.
9. Ch. H. Churchill, La vie d'Abdelkader, trad. française M. Habart, SNED, Alger, 1971.